

خَلَقَ أَمْ فَوَضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ

المحاضرة ١: إنقاذ الطواهير

أ.ر. سي. سرول

إِحْدَى الْحِكَايَاتِ الْمُفْضَلَةِ لَدَيَّ هِيَ فَصَّةُ عَالِمِ الْفَلَكِ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَ لَاهُوتِي، فَقَالَ عَالِمُ الْفَلَكِ لِلَاهُوتِي: "هُنَاكَ شَيْءٌ لَا أَفْهَمُهُ! لِمَاذَا أَنْتُمْ اللَّاهُوتِيُّونَ تَحُوضُونَ فِي التَّعْقِيدَاتِ اللَّاهُوتِيَّةِ، وَتَتَجَادَلُونَ حَوْلَ التَّعْيِينِ الْمُسْبِقِ، وَالتَّرْتِيبِ الْمُنطِقِيِّ لِأَحْكَامِ اللَّهِ، وَكُلُّ تِلْكَ الْأُمُورِ التَّقْنِيَّةِ الَّتِي لَا يَأْبَهُ لَهَا تَمَامًا الشَّخْصُ الْعَادِي؟ فَبِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، الدِّينُ بَسِيطٌ. فَهُوَ الْقَاعِدَةُ الدَّهَبِيَّةُ: 'عَامِلِ الْآخِرِينَ كَمَا تُرِيدُ أَنْ يُعَامِلُوكَ'. فَفَكَرَ اللَّاهُوتِيُّ لِزُهْرَةٍ وَقَالَ: "أُظُنُّ أَنِّي أَفْهَمُ قَصْدَكَ تَمَامًا، لِأَنِّي أَعَانِي مِنَ الْإِحْبَاطِ نَفْسِهِ مَعَكُمْ أَنْتُمْ يَا عُلَمَاءَ الْفَلَكِ. فَإِنَّكُمْ تُبْهَرُونَنَا دَائِمًا بِذَلِكَ الْكَلَامِ التَّقْنِيِّ عَنِ انْفِجَارِ الْمُسْتَعْرَبَاتِ، وَالنُّجُومِ الرَّائِفَةِ التَّابِضَةِ، وَالْأَضْطِرَابَاتِ الْفَلَكِيَّةِ. فِي الْوَاقِعِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، عِلْمُ الْفَلَكِ بَسِيطٌ. فَهُوَ أُغْنِيَةُ "لَالِي لِي يَا نَجْمَةٌ" (twinkle twinkle little star).

حَسَنًا، هُنَاكَ مَنْ يُرِيدُونَ تَبْسِيطَ اللَّاهُوتِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، وَكَذَلِكَ مَنْ يُرِيدُونَ تَبْسِيطَ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، بَيْنَمَا فِي الْوَاقِعِ كِلَا هَذَيْنِ الْمَجَالَيْنِ الدِّرَاسِيِّينِ فِي عَايَةِ التَّعْقِيدِ. نَعِيشُ فِي زَمَنِ صَارَ هُنَاكَ احْتِرَامٌ كَبِيرٌ فِيهِ لِلْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ. فَحِينَ تُرِيدُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مُشْكَلَةً مَا لَيْسَتْ عَسْرَةً، أَيْ إِنَّهَا بَسِيطَةٌ، لَا نَقُولُ: "لَا تَتَطَلَّبُ الْإِجَابَةَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ لَاهُوتِيًّا"، بَلْ نَقُولُ: "لَيْسَتْ هَذِهِ مُعْضَلَةٌ عِلْمِيَّةٌ"، وَبِهَذَا نُعَبِّرُ عَنْ شُعُورِنَا بِالرَّهْبَةِ نَحْوَ عِلْمِ الْحَدِيثِ.

نَعِي جَمِيعًا أَنَّهُ فِي الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، ثَمَّةَ شُعُورٌ قَوِيٌّ بِوُجُودِ نِزَاعٍ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ. لَمْ يَكُنِ الْحَالُ هَكَذَا دَائِمًا، لَكِنَّهُ قَطْعًا صَارَ كَذَلِكَ. فَإِنَّا نَنْقَسِمُ عَادَةً إِلَى فَرِيقَيْنِ مُتَنَافِسَيْنِ، وَالْحَوَارِ وَالْجِدَالَ بَيْنَ الْمَجْمُوعَتَيْنِ يَشُوبُهُ نَوْعٌ مِنَ التَّشَكُّكِ وَالْإِزْتِيَابِ. يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ الْحَالُ هَكَذَا. فَأَنَا، مَثَلًا، مُهْتَمٌّ بِتَطَوُّرِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ. وَيَجِبُ أَنْ أَقُولَ إِنِّي مُنْبَهَرٌ بِشِدَّةٍ بِالْإِنْجَازَاتِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ فِي مَجَالِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ. أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ، مَثَلًا، لَا أَعْرِفُ الرَّقْمَ الدَّقِيقَ. إِنَّ مَا بَيْنَ ٩٥-٩٩٪ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ يَنْعَمُونَ بِمُسْتَوَى مَعِيشَةٍ أَعْلَى مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَنْعَمُونَ بِهِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ. وَحَتَّى الْفُقَرَاءُ فِي هَذَا الْبَلَدِ يَنْتَفِعُونَ مِنَ الطِّبِّ الْحَدِيثِ، فِي إِطَالَةِ أَعْمَارِهِمْ فِي أَوْقَاتِ الْمَرَضِ. كَمَا يَنْتَفِعُونَ مِنَ الْغُصْبَاحِ الْكَهْرَبَائِيِّ، وَالسِّبَاكَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَأَجْهَرَةِ التِّلْفَازِ، إِلَى آخِرِهِ. وَإِنْ خَرَجْنَا مِنَ الْعَصْرِ وَالْقَرْنِ الْحَالِيَيْنِ، وَتَطَلَّلْنَا إِلَى حَيَاةِ النَّاسِ فِي الْمَاضِي، وَرَأَيْنَا إِجْزَالَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ بِرُمَّتِهِ، يَجِبُ أَنْ نَقْفَ مَشْدُوهِينَ. وَحِينَ أَقْرَأُ تَارِيخَ الْعِلْمِ، وَأَتَأَمَّلُ فِي فِكْرِ أَشْخَاصٍ مِثْلِ نِيُوتُنْ وَكَيْبَلَر (Kepler)، وَكُوبَرْنِيكُوس (Copernicus) وَأَيْنِشْتَاينِ، يَبْدُو لِي أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا بَشَرًا خَارِقِينَ، وَشَدِيدِي الْبَرَاعَةِ فِي التَّنْظِيرَاتِ الَّتِي وَضَعُوهَا، وَعَبَّرَ ذَلِكَ.

في الماضي، كان هناك نوعٌ من التعاون بين اللاهوت والعلم، لكن الثورة الكوبرنيكوية، والصراع الذي نشأ بين الكنيسة والمجتمع العلمي ولد شرخاً بين الاثنين، لا يزال قائماً إلى اليوم. لكن من الأمور التي أود أن نتناولها في هذه السلسلة هو أوجه التلاقح بين العلوم الطبيعية واللاهوت، والاهتمامات والأهداف المشتركة بينهما، وإمكانية تعاونهما معاً في عملٍ مشتركٍ.

لدى العلم واللاهوت العديد من القواسم المشتركة، وسنبداً اليوم بتناول اثنين من هذه القواسم شديدة الأهمية. أولاً، كلٌ من اللاهوت والعلم معنيان بالتحلاص. ربّما يُفاجئكم اهتمام العلم بالتحلاص. دعوني أتمادى أكثر وأقول إن خلاصة الأمر هي أن العمل الأساسي للعلم يتعلّق بمسألة التحلاص. لكن باستخداي كلمة "خلاص"، وتطبيقها على العلم، لست أستخدمها بالطريقة المعتادة التي تُستخدم بها في المجال الديني أو اللاهوتي. ففي اللاهوت، حين نتحدّث عن التحلاص، نَقصدُ مصالحة الإنسان مع الله؛ وفداء النفس البشرية التي ستَحيا إلى الأبد، إلى آخره. لكن ليس هذا هو الاهتمام الرئيسي للعالم. فالعالم مهتمٌ بنوعٍ آخر من التحلاص، وهو نوعٌ كان الفيلسوف أفلاطون هو أوّل من تحدّث عنه منذُ قرونٍ مضت.

أظن أننا جميعاً ملّمون بدرجةٍ ما بعمل هذا الفيلسوف الأثيني، الذي شارك في الألعاب الأولمبية. وإذا كان عريض المنكبين، سمي أفلاطون. وحصل والده على قطعة أرض من رجلٍ يدعى "أكاديمي"، وكانت بها حقول الزيتون. ثم بنى أفلاطون أكاديميته هناك في "الحقول الأكاديمية"، ومن هنا جاء ذلك التعبير الدارج إلى يومنا هذا. وعند مدخل الأكاديمية، علّق هذه الكلمات على الباب: "ممنوعُ الدخول إلا للمتخصّصين في علم الهندسة". لا يُشبه ذلك الكتابة التي دوّنت على بوابة الجحيم، وفق ذاتي، التي تقول: "أيها الداخلون، تخلّوا عن كل أمل". قال أفلاطون: "ممنوعُ الدخول إلا للمتخصّصين في علم الهندسة". ومع ذلك، حين نفكر في أفلاطون وأكاديميته، نجدُها مدرسةً في مجال الفلسفة، وليس في علم الهندسة، أو الرياضيات المتقدّمة. لم إذن وضعت تلك الكتابة على الباب؟ بحسب أفلاطون، "المتخصّص في علم الهندسة" ليس شخصاً مهتماً بفرعٍ واحدٍ من فروع الرياضيات المتقدّمة، لكنّه مهتمٌ بمفهوم الشكل، أو ما قد نسميه "الحقيقة الشكلية". فهو، كفيلسوفٍ، كان مهتماً بالمفاهيم وبالأفكار التي يمكنها بشكلٍ ما أن تُفسّر كل العناصر المتباينة للعالم المادّي التي نصادفها كل يوم. فقد كان يبحث وراء المادة عن الحقيقة المطلقة، وعن المبادئ التي يجب فهم كل شيءٍ من خلالها. ولذا، فبالنسبة إليه، كان علم الهندسة نوعاً من الفلسفة. دعوني أضيف هذه الفكرة: فإن درستمُ تاريخ الفلسفة وتاريخ اللاهوت، ستدركون أنه على مرّ القرون عبر تاريخ الحضارة الغربية، البعض من أهمّ الفلاسفة والبعض من أهمّ الإنجازات الفلسفية تحققت على يد علماء لم يكونوا فقط فلاسفة، بل كانوا متخصّصين في الرياضيات، أو في فرعٍ ما من فروع العلوم الطبيعية.

لِئُفَكَّرَ، مَثَلًا، فِي سَبِينُوزَا (Spinoza) وَدِيكَارْتْ؛ فَكَلَاهُمَا كَانَ مُتَخَصِّصًا فِي الرِّيَاضِيَّاتِ؛ وَكَذَلِكَ بَلِيُزْ بِاسْكَالْ (Blaise Pascal). وَلِئُفَكَّرَ أَيضًا فِي إِيمَانُويلْ كَانْتْ، الَّذِي كَانَ يُحَسِّبُ أَعْظَمَ عِمْلَاقٍ فِي تَارِيخِ الْفَلْسَفَةِ، وَهُوَ كَتَبَ أَيضًا فِي مَجَالِ عِلْمِ الْفَلَكِ وَالْفِيْزِيَاءِ. فَإِذْ رَأَى هُوَ لَآءِ وَحَدَّةً بَيْنَ الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ وَعَالَمِ الْأَفْكَارِ، لَمْ يَعْتَبِرُوا الْفَلْسَفَةَ وَالْعِلْمَ فِي تَنَافُسٍ أَوْ انْفِصَالٍ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ.

لِتَعُدَّ مُجَدِّدًا إِلَى فِكْرَةِ الْخُلَاصِ. فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى أَفْلَاطُونِ، كَانَ اهْتِمَامُهُ الرَّئِيسِيِّ، الَّذِي وَصَفَهُ بِأَنَّهُ سَبَبُ وُجُودِ كُلِّ بَحْثٍ عِلْمِيٍّ وَكُلِّ بَحْثٍ فَلَْسَفِيٍّ، هُوَ مُهْمَةُ الْبَاحِثِ بِأَنْ "يُنْقِذَ الظَّوَاهِرَ". إِنْقَازُ الظَّوَاهِرِ. وَمَا الَّذِي كَانَ يَقْصِدُهُ بِذَلِكَ؟ نَسْتَحْدِمُ كَلِمَةَ "ظَوَاهِرَ" اسْتِخْدَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَقَدْ أَرَى شَيْئًا يُحَوِّرُ إِعْجَابِي لِكُونِهِ اسْتِثْنَائِيًّا لِلْغَايَةِ، أَوْ رَائِعًا، أَوْ عَظِيمًا. فَرَبَّمَا أَقُولُ مَثَلًا عَنْ إِمْكَانِيَّاتِ مَا يَكِلُ جُورْدَانَ فِي كُرَةِ السَّلَةِ "إِنَّهُ ظَاهِرَةٌ" مُسْتَحْدِمِينَ الْكَلِمَةَ كَنَعْتِ لَوْصِفِ الْعَظْمَةِ، أَوْ لَوْصِفِ شَيْءٍ يُدْهِلُنَا. لَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَصْلِيَّ لِكَلِمَةِ "ظَوَاهِرَ"، وَهِيَ صِبْغَةُ الْجَمْعِ لِكَلِمَةِ "ظَاهِرَةٌ"، يُشِيرُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْحَوَاسِّ الْخَارِجِيَّةِ. أَيُّ شَيْءٍ يُبْصَرُهُ، أَوْ تَرَاهُ، أَوْ نَسْمَعُهُ، أَوْ نَتَذَوِّقُهُ، أَوْ نَلْمِسُهُ، أَوْ نَشْتُمُهُ. فَأَيُّ شَيْءٍ نُصَادِفُهُ فِي الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ الْخَارِجِيِّ هُوَ جُزْءٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْوَاقِعِ. وَمَا كَانَ أَفْلَاطُونُ مُهْتَمًّا بِهِ حِينَ تَكَلَّمَ عَنْ مُحَاوَلَةِ إِنْقَازِ الظَّوَاهِرِ هُوَ هَذَا: فَقَدْ قَالَ إِنَّهُ، بِصِفَتِهِ عَالِمًا وَقَيْلَسُوفًا، مُهْتَمًّا بِالتَّوَصُّلِ إِلَى نِظَامٍ فَلَْسَفِيٍّ أَوْ نِظَامٍ نَظْرِيٍّ يُمَكِّنُ أَنْ يُفَسِّرَ بِطَرِيقَةٍ مُتَرَابِطَةٍ وَمَنْطِقِيَّةٍ كُلَّ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا. وَقَالَ إِنَّ هَذِهِ هِيَ مُهْمَةُ الْعَالِمِ، وَهِيَ إِنْقَازُ الظَّوَاهِرِ، أَيُّ فَهْمُ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا.

إِنْ تَتَبَعْتُمْ تَارِيخَ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ وَتَارِيخَ الْعِلْمِ، سَتَرَوْنَ أَنَّهُ فِي كُلِّ جِيلٍ تَحْدُثُ تَغْيِرَاتٌ فِي النِّظَرِيَّاتِ السَّائِدَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَوْ مَا قَدْ نَسَمِيَهُ بِالصِبْغِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ نَمَازِجِ الْعَصْرِ. أحيانًا تَكُونُ هَذِهِ التَغْيِرَاتُ تَدْرِيجِيَّةً، وَتَبْدُو ظَهْرًا وَضَيْلَةً. وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، تَكُونُ كَارِثِيَّةً وَجَذْرِيَّةً. لَكِنَّ عِنْدَ حُدُوثِ نَقْلَةٍ نَوْعِيَّةٍ، تُوضَعُ نَظْرِيَّةٌ تُفَسِّرُ الظَّوَاهِرَ بِشَكْلِ أَفْضَلِ.

نَعْلَمُ أَنَّهُ رَبَّمَا كَانَتْ أَكْبَرُ ثَوْرَةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَحَتْمًا الثَّوْرَةُ الَّتِي أَحْدَثَتْ أَكْبَرَ انْتِفَاضَةٍ، هِيَ الَّتِي تُسَمَّى بِالثَّوْرَةِ الْكُوبَرْنِيكِيَّةِ، الَّتِي انْدَلَعَتْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَكَانَتْ ثَوْرَةً فِي مَجَالِ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ وَعِلْمِ الْفَلَكِ. فَلِمِئَاتٍ وَمِئَاتِ السِّنِينَ، وَفِعْلِيًّا طَوَالَ نَحْوِ أَلْفِي سَنَةٍ، كَانَ جَمِيعُ الْعُلَمَاءِ يَعْمَلُونَ ضَمْنَ إِطَارِ الْفِكْرَةِ نَفْسِهَا، الَّتِي تُسَمَّى "نَمُودَجَ مَرَكَزِيَّةِ الْأَرْضِ"، وَهِيَ الْفِكْرَةُ الْقَائِلَةُ إِنَّ الْأَرْضَ هِيَ الْمَرَكَزُ لَيْسَ فَقَطْ لِلْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي نَعِيشُ فِيهَا، بَلْ هِيَ مَرَكَزُ الْكُونِ بِأَكْمَلِهِ. أُعْطِيَ هَذَا كِرَامَةً كَبِيرَةً لِلْإِنْسَانِ، لِأَنَّنا نُحِبُّ أَنْ نَعْتَبِرَ أَنْفُسَنَا مَرَكَزَ هَذَا الْكُونِ الْفَسِيحِ. ثُمَّ جَاءَ كُوبَرْنِيكُوسُ، الَّذِي عَارَضَ تِلْكَ الْفِكْرَةَ، وَقَالَ: "لَا، الشَّمْسُ، وَلَيْسَ الْأَرْضُ، هِيَ مَرَكَزُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ". وَهَكَذَا، ابْتَدَأَ جَدَلٌ سَادَهُ نِزَاعٌ شَرِسٌ. نَعْرِفُ حَادِثَةَ جَالِيلِيُو الَّتِي وَجَّهَتْ ضَرْبَةً لِلْكَنِيْسَةِ لَا تَرَالُ آثَارَهَا بَاقِيَةً إِلَى

يَوْمَنَا هَذَا. تَذْكُرُونَ قِصَّةَ الْأَسَافَةِ الَّذِينَ رَفَضُوا النَّظَرَ عَبْرَ عَدَسَةِ تَيْلِسْكُوبِ جَالِيلِيُو، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُقْتَنِعِينَ أَنَّ نَظَرِيَّتَهُ حَتْمًا خَاطِئَةٌ، إِذْ يَحْسَبُ رَأْيَهُمْ، عَلَّمَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِمَا لَا لُبْسَ فِيهِ بِأَنَّ الْأَرْضَ، وَلَيْسَتْ الشَّمْسُ، هِيَ مَرَكِّزُ الْكُونِ - أَوْ مَرَكِّزُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ. يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَيْضًا أَنَّ جَالِيلِيُو لَقِيَ الْقَدَرَ نَفْسَهُ مِنَ الْهُجُومِ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ فِي عَصْرِهِ كَمَا مِنَ الْأَسَافَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُهَاجِمُ أَمْرًا مُقَدَّسًا فِي الْمَجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ وَكَذَلِكَ فِي الْمَجْتَمَعِ الدِّينِيِّ.

كَيْفَ حَدَثَ كُلُّ هَذَا؟ يَعُودُ ذَلِكَ إِلَى عَصْرِ أَرِسْطُو، وَالْإِسْكَانْدَرِ الْأَكْبَرِ، وَرَجُلٍ يُدْعَى بَظْلِيمُوسَ، الَّذِي وَضَعَ النِّظَامَ الْقَدِيمَ لِعِلْمِ الْفَلَكَ، الَّذِي نُسِمِيهِ "مَرَكِّزِيَّةَ الْأَرْضِ"، مُعْتَبِرًا الْأَرْضَ مَرَكِّزَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالسَّمَاءَ مِثْلَ مِظَلَّةٍ بِلُورِيَّةٍ فَوْقَ الْأَرْضِ. وَهَنَّاكَ أَيْضًا نُجُومٌ، أَوْ تِلْكَ الْأَجْرَامُ السَّمَاوِيَّةُ الْمُثَبَّتَةُ فِي هَذِهِ الْقُبَّةِ الرُّجَاجِيَّةِ غَيْرِ الْمَرِيَّةِ. وَهِيَ تَتَحَرَّكُ، لَكِنَّ حَرَكَتَهَا مُنْتَظِمَةٌ وَمُتَوَقَّعَةٌ، لِأَنَّهَا مُثَبَّتَةٌ فِي تِلْكَ الدَّوَائِرِ الْمُتَدَاخِلَةِ مَعًا. الْمُسْكَكَةُ الْكُبْرَى، قَطْعًا، الَّتِي وَاجَهَهَا بَظْلِيمُوسُ تَكُونُ فِي الْهَائِمَاتِ، أَوْ تِلْكَ النُّجُومِ الْهَائِمَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِالْكَوَاكِبِ، لِأَنَّ كَلِمَةَ "كَوْكَبٍ" (planet) تُعْنِي "هَائِمًا". وَلِتَفْسِيرِ سَبَبِ هِيَامِ تِلْكَ النُّجُومِ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَسَّسَ مَجْمُوعَةً مُتَشَابِكَةً وَشَدِيدَةً التَّعْقِيدِ مِنَ الدَّوَائِرِ الْبِلُورِيَّةِ الْمُتَدَاخِلَةِ مَعًا، بِهَدَفِ إِنْقَاذِ الظَّوَاهِرِ، أَي لِيَتِمَكَّنَ مِنَ التَّبَيُّؤِ بِدِقَّةٍ بِحَرَكَاتِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ، الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ فُضُولٍ أَكَادِيمِيٍّ، بَلْ كَانَ حَرْفِيًّا مَسْأَلَةَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ؛ لِأَنَّ قِرَاءَةَ حَرَكَاتِ النُّجُومِ كَانَتْ تُحَدِّدُ مَوَاسِمَ الزَّرْعِ وَالْحَصَادِ، نَاهِيكَ عَنِ أَنْظِمَةِ الْمِلَاحَةِ الَّتِي تَتَّبَعُ حَرَكَةَ النُّجُومِ.

وَهَكَذَا، تَوَصَّلَ إِلَى هَذَا النِّظَامِ الْمُعَقَّدِ حِسَابِيًّا، الَّذِي يُسَاعِدُ فِي التَّبَيُّؤِ بِالْكَسُوفِ، وَمَرَاجِلِ الْقَمَرِ، وَعَبْرَ ذَلِكَ. وَنَجَّحَ النِّظَامَ. وَظَلَّ نَاجِحًا لِمِئَاتٍ وَمِئَاتِ السِّنِينَ. فَنِظَامُهُ أُنْقَذَ الظَّوَاهِرَ. ثُمَّ جَاءَ كُوبَرْنِيكُوسُ، وَعَارَضَ ذَلِكَ قَائِلًا: "أَلَا، بَلِ الشَّمْسُ هِيَ مَرَكِّزُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ". إِحْدَى الْمَفَارِقَاتِ التَّارِيخِيَّةِ تَكُونُ فِي أَوَّلِ نِظَامِ أَسَّسَهُ كُوبَرْنِيكُوسُ. فَهُوَ لَمْ يَنْجَحْ بِقَدْرِ نِظَامِ بَظْلِيمُوسَ. كَانَ أَقَلَّ تَعْقِيدًا، وَأَبْسَطَ حِسَابِيًّا، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالدِّقَّةِ نَفْسَهَا مِنْ حَيْثُ إِمْكَانِيَّةِ التَّبَيُّؤِ.

تَطَلَّبَ الْأَمْرُ مِنْ كَيْبِلَرٍ لَاحِقًا إِجْرَاءَ الْعَدِيدِ مِنَ التَّعْدِيلَاتِ الْمُهَمَّةِ لِلْغَايَةِ، فَحَلَّ مُشْكَلَةَ الْحُرْكَةِ التَّرَاجُعِيَّةِ لِلْمَرِيخِ، وَمُشْكَلَةَ الْمَسَارَاتِ الْمَدَارِيَّةِ لِلْكَوَاكِبِ، مُبَيِّنًا أَنَّهَا بِيضَاوِيَّةٌ وَلَيْسَتْ دَائِرِيَّةٌ تَمَامًا، وَعَبْرَ ذَلِكَ. لَكِنَّ الْفِكْرَةَ هِيَ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ اسْتَمَرَّ لِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا لَيْسَ فَقَطْ بِسَبَبِ التَّحْيِيزِ، لَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ لِأَنَّهُ نَجَّحَ. فَقَدْ أُنْقَذَ الظَّوَاهِرَ بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ.

وَمَا يَجْدُثُ هُوَ أَنَّنَا حِينَ نَعْرِفُ الْمَزِيدَ عَنِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا، نُصَادِفُ تَفَاصِيلَ بَسِيطَةً، وَنَعْرِفُ أُمُورًا مُعَيَّنَةً لَا تَتَمَاشَى مَعَ نِظَامِنَا، وَلَا ثَلَاثِمُ الصِّيغَةِ. وَمَاذَا نُسَمِّيهَا؟ نُسَمِّيهَا الشَّوَادُ. الشَّوَادُ هِيَ مُعْطِيَاتٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ لَا تَتَوَافَقُ مَعَ النِّظَامِ الْفِكْرِيِّ الْحَالِيِّ. وَإِنْ أَصَبَحَتْ مُرْعَجَةً بِمَا يَكْفِي، تَبْدَأُ فِي إِثَارَةِ الشُّكُوكِ بِشَأْنِ النِّظَامِ بِأَكْمَلِهِ.

وَهَكَذَا تَتَغَيَّرُ الْأَنْظِمَةُ. فَإِنْ صَادَفَتْ مَا يَكْفِي مِنَ الشَّوَادِ، يَبْدَأُ النَّاسُ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى افْتِرَاضَاتِ الْأَنْظِمَةِ السَّابِقَةِ وَالصِّيغِ السَّابِقَةِ، إِلَى أَنْ يَأْتِي مُفَكَّرٌ مُبْدِعٌ، وَيَخْرُجُ بِنَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. الْيَوْمَ تَتَغَيَّرُ النِّظَرِيَّاتُ بِسُرْعَةٍ تَكَادُ تَكُونُ كَالْبَرْقِ، وَهَذَا يَعُودُ جُزْئِيًّا إِلَى ثَوْرَةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي نَتَمَتَّعُ بِهَا الْيَوْمَ. فَحِينَ أَتَصَفَّحُ كُتُبَ الْفِيْزِيَاءِ لِلْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ، الَّتِي كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَفْرَأَهَا فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ، وَأَرَا جِزْءًا مِنَ التَّنَظَّرِيَّاتِ الْمُؤَكَّدَةِ الْمُدَوَّنَةِ فِيهَا، يَغْلِبُنِي الصَّحْكُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَتَّبَعِي هَذِهِ النِّظَرِيَّاتِ. لَكِنْ عَلَى أَيِّ حَالٍ، نَحْنُ نَشْتَرِكُ فِي سَعْيِ مُشْتَرِكٍ، وَهُوَ سَعْيِي إِلَى الْإِنْقَادِ، أَيَّ إِلَى فَهْمِ الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ.

الْقَاسِمُ الْمُسْتَشْرِكُ الثَّانِي بَيْنَنَا، الَّذِي سَأَذْكُرُهُ بِشَكْلِ عَابِرٍ، هُوَ أَنَّ كَلِمَتَنَا يَدْرُسُ عَالَمَ الطَّبِيعَةِ. يُعَلِّمُ اللَّاهُوتُ الْكِلَاسِيكِيُّ بِأَنَّ اللَّهَ يُعْلِنُ عَنِ ذَاتِهِ لَيْسَ فَقَطْ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، بَلْ هُنَاكَ أَيْضًا مَا نُسَمِّيهِ بِالْإِعْلَانِ الْعَامِّ، وَهُوَ إِعْلَانٌ مِنَ اللَّهِ عَنِ ذَاتِهِ بِوَسْطَةِ الطَّبِيعَةِ. أَطْرَحُ عَادَةً هَذَا السُّؤَالَ عَلَى طُلَّابِي بِكَلِمَةِ اللَّاهُوتِ، فَأَقُولُ: "هَلْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ مَعْصُومٌ؟" فَيَجِيبُ مُعْظَمُهُمْ: "نَعَمْ". فَأَقُولُ: "حَسَنًا، هَلْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْإِعْلَانَ الْعَامَّ مَعْصُومٌ؟" فَيَجِيبُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ فِي حَيْرَةٍ، فَأَقُولُ: "لِمَ التَّرَدُّدُ؟ السَّبَبُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَجْعَلُكُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ مَعْصُومٌ هُوَ إِيمَانُكُمْ بِأَنَّ مَصْدَرَهُ هُوَ اللَّهُ. فَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْبَشَرَ مَعْصُومُونَ". ثُمَّ أَقُولُ: "وَمَنْ هُوَ مَصْدَرُ الْإِعْلَانِ الْعَامِّ؟" إِنَّهُ الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ.

وَلِذَا، سَأَتَنَاوَلُ هَذِهِ السَّلْسَلَةَ الدِّرَاسِيَّةَ الْمُخْتَصِرَةَ مُتَّبِعًا قِنَاعَةَ أَنَابِسِ مِثْلِ الْقِدِّيسِ أَوْغَسْطِينُوسِ وَالْقِدِّيسِ ثُومَا الْأُكُوِينِيِّ، الَّذِينَ عَمِلُوا بِنَاءً عَلَى الْإِفْتِرَاضِ التَّالِي: أَنَّ كُلَّ الْحَقِّ هُوَ حَقٌّ إِلَهِيٌّ، وَكُلُّ الْحَقِّ يَتَلَاقَى فِي النِّهَايَةِ. ذَاتَ مَرَّةٍ، أَدَلِّي أَوْغَسْطِينُوسَ بِتَغْلِيْقٍ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ مَسِيحِيٍّ أَنْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَتَعَلَّمَ قَدْرَ الْإِمْكَانِ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ حَقًّا، فَهِيَ سَتُوجِّهُهُ إِلَى اللَّهِ. وَعَلَى الْمَسِيحِيِّ الْأَيَّ يَخْشَى الْحَقَّ فِي أَيِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْبَحْثِ، سَوَاءً فِي دِرَاسَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَوْ دِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ. فَكِلَاهُمَا مَجَالَانِ لِلْإِعْلَانِ الْإِلَهِيِّ. إِذَنْ، يُمَكِّنُ لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ أَنْ يُقَدِّمَ فَائِدَةً ضَخْمَةً لِلْكَنِيسَةِ - وَكَثِيرًا مَا كَانَ كَذَلِكَ - وَأَنْ يَكُونَ بَرَكَهَ كَبِيرَةً لَهَا. فَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، صَحَّحَتِ الْإِكْتِشَافَاتُ الْعِلْمِيَّةُ مِنَ الْفِكْرِ اللَّاهُوتِيِّ لِلْكَنِيسَةِ، وَسَبَّبَتِ الْإِحْرَاجَ لَهَا. وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، قَوِّمَ اللَّاهُوتُ الْعِلْمَ. لَيْسَ الْعَالَمُ أَوْ اللَّاهُوتِيُّ مَعْصُومَيْنِ، بَلْ عَلَى كَلِمَتِنَا أَنْ نَتَضَعُ أَمَامَ الظَّوَاهِرِ.

الدكتور آر. سي. سبزل هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".